مقدمة

إنها الثورة.. الكلمة الخالدة.. التحول الكبير الذى يغير التاريخ.. ثورة شعوب العالم الثالث التى طال انتظارها، ثورة عالم الجنوب المهمل المستقبل.. العالم المتأخر النامى كما يسميه العالم المتقدم.

ثورات الربيع العربى؛ بشائر تحرير العقلية العربية وسعيها للنهضة الحقيقية، التى طال انتظارها؛ نهضة نحو عالم الحداثة والعدالة الاجتماعية والرغبة فى التغيير؛ ومقاومة الظلم والتخلف، الذى أغرق شعوب العالم الثالث والمنطقه العربية لقرون طويلة مظلمة. إن هذه الثورات والانتفاضات الشعبية العارمة، وغيرها من حركات التحول الاجتماعى، يجب أن يواكبها ثورة موازية؛ ثورة لتحرير العقل العربى باتجاه العلم والمعرفة والاجتهاد الدينى المدروس؛ ثورة لتجديد المفاهيم البالية التى تعيش فى ظلام الماضى الذى ولى؛ تجديد فى جميع مناحى وجوانب الفكر العربى الحديث: إن ثورة تحرير العقل العربى لن تصلح فى التغيير للأفضل بدون الخروج مما وصلت إليه أوضاعنا العربية والإسلامية المزرية؛ ابتداء بالجهل، والتخلف، والظلم، والقهر، ومرورًا بالقمع، والبطش، والإذلال، والمهانات، والملاحقات، وسجون التعذيب، وتكميم الأفواه ومصادرة العقل العربى ومقاومة محاولات تحريره بحجة الالتزام بتعاليم السلف؛ كل هذا يتم لمصلحة أنظمة حكم مستبدة؛ أو حاكم ديكتاتور طاغية تولى حكمه بطريقة غير شرعية؛ وغير منتخب ديمقراطيًا أو شوريًا إسلاميًا؛ مستخدمًا جيشه وشرطته فى قهر شعوبهم المغلوبة على أمرها؛ وعادةً ما يستحوذ هؤلاء الحكَّام الطغاة على الحكم بنظام الوراثة المباشرة أو غير المباشرة وعلى المال والسلطة معًا. ويقوم المشرعون الفاسدون عادة التابعون لهؤلاء الطغاة، غير المحدد حكمهم بسقف زمنى كالعادة، يقوم هؤلاء المشرعون من خلال كهنوتهم ومؤسساتهم الدينية الباطلة وغير الشرعية، والتى تحتكم إلى قوانين تم تفصيلها

لمصلحة الحكّام الطغاة، بتقسيم الناس إلى جماعات متناحرة؛ مما يصب فى مصلحة استمرارية هذا الحاكم، ولتقوم المؤسسات الرسمية، اجتماعية كانت أم دينية، والتى تأتمر بأمر هؤلاء الطغاة المستبدين باستخدام جميع أساليب القهر والظلم ضد كل من ينطق بكلمة حق أو ينتقد الأوضاع القائمة أو يثور ضد هذا الحاكم المستبد، ويرسمون خطوطًا حمراء مرسومة لشعوبهم، والتى يمنع تخطيها أو تجاوزها. ومن خلال دساتير وتشريعات مختلفة وصفية، مصممة لخدمة أنظمة الحكم الفاسد.

هذا فيما يتعلق بالسلطات الغاشمة الحاكمة لهذه المجتمعات العربية، أما بالنسبة لعقلية الإنسان العربى نفسه، المحكوم من هؤلاء الطغاة، فقد أجمعت معظم الدراسات الاجتماعية المستفيضة المحايدة، والتى تعمقت فى غياهب الشخصية العربية وسبر أغوارها فقد توصلت إلى نتائج جوهرية يهمنا كشفها واستعراضها فى هذا البحث التفصيلى الذى نحن بصدده فى هذا الكتاب؛ هذه النتائج توضح أن هذه العقلية تحتاج فعلًا إلى ثورة تجديد شاملة تغطى جميع الجوانب الفكرية والسلوكية لهذا المجتمع.

لقد تعرضت العقلية العربية للتحلل، والتفكك، وفقدان مقوماتها الأساسية التى جعلتها فى يوم من الأيام رائدة للحضارة والإنسانية. إن الضعف والتفكك العربى وفساد العقلية العربية ليس وليد اليوم أو الأمس القريب، وإنما له أصول وتراكمات نفسية متجذرة فى التاريخ العربى الإسلامى حتى أصبحت ثقافة العرب مخالفة لتعاليم الدين الإسلامى الذى يدينون، وبدت واضحة فى النزاعات المستمرة على السلطة منذ قيام الدولة الأموية مرورًا بالدولة العباسية ثم نكوصهم على أعقابهم من الأندلس، ووقوعهم بعد ذلك فريسة تحت قبضة الدولة العثمانية، وقد أطلقوا مسمى الخلافة الإسلامية على هذه الدول التى أبيدت بيد أعدائها من العرب أنفسهم نتيجة للتآمر، والخيانة؛ وحب السلطة؛ وسعيًا وراء تكالبهم على السلطة؛ والسلطان ولا ينفى هذا إخلاص وصدق وتفانى كثير من أعلام العرب وقادتهم الأفذاذ من خلال الدولة الأموية والدولة العباسية فى بناء حضارة إسلامية إنسانية رائعة، قادت العالم إلى طريق التقدم والرقى، ولكن لهدم هذا الصرح الشامخ عوامل عدة منها الابتعاد عن العقل والتخلف والنزعة المستمرة فى العودة إلى الماضى.

إننى على يقين تام أننا بطرحنا العلمى الدقيق لأسباب تخلف العقلية العربية ومشكلاتها المتعلقة بقضايا الفكر والتنمية والثقافة؛ يمكننا أن نواكب ثوراتنا العربية التواقة للتقدم والتغيير للأفضل بمشروع فكرى وخارطة طريق حديثة، تحمل الفكر والعقل العربى محمولًا على طاقة

هذه الثورات المتدفقة لتحقيق واقع عربى جديد؛ متقدم وناهض؛ ونصنع عالمًا عربيًّا جديدًا ومختلفًا وأكثر حداثة، لكن يظل السؤال المهم دائمًا: هل يستفيد صانعو القرار السياسى الجدد فيما بعد الثورات من تلك الأطروحات الاجتهادية، والتى حملها على عاتقهم مفكرون كبار فى الفترة الأخيرة من أمثال: د. عابد الجابرى وطيب تيزينى، ومحمد أركون، ونصر حامد أبو زيد إلى آخر هؤلاء المجددين العظام؛ أم ستظل مجرد أفكار تقدمها النخبة العربية المعزولة فى مجملها عن الواقع العربى وعن القاع الاجتماعى؟

إن فكرة وأطروحات كتابى هذا إنما هى محاولة متواضعة للمساهمة فى صناعة وصياغة عالم عربى يخرج من الواقع الذى هو فيه ومما هو مقلب ومقولب ومنصوص عليه؛ وذلك من أجل تحرير العقل العربى من عقال ما هو مكتوب ومرسوم مسبقًا؛ وإخراجه من القوالب والأفكار الجاهزة، والخروج برؤية فكرية وثقافية وسياسية وتنموية جديدة فى ظل وجود لحظة تاريخية تشكل زلزالًا سياسيًّا واجتماعيًّا فى العالم العربى اليوم.

إننا يجب علينا كمفكرين ونخبة مثقفة أن نقود مجتمعاتنا للدخول فى بناء الدولة الحديثة وتكريس مفهوم هذه الدولة، وخلق منظومة المواطنة والتعددية، والتسامح والحرية، والإيمان بضرورة بناء إنسان عربى متحرر فى فكره؛ يؤمن بالحداثة؛ أكثر وعيًا وإدراكًا لحاضره ومستقبله؛ مع وجود تنمية حقيقية تمزج بين التنمية الاقتصادية والتنمية الإنسانية.

إن أحد الأركان المهمة لمنظومة التحديد التى يجب أن يمر بها العقل العربى للخروج من حالة التخلف هى إعادة النظر فى نظم التعليم؛ لأن التعليم هو القاعدة الأساسية والرئيسية فى بناء المجتمعات الحديثة؛ وإذا لم يصلح التعليم؛ فلا يمكن إصلاح أى شىء؛ وإذا صلح التعليم؛ فإن المشروع الإصلاحى سوف يشمل كل شىء فى مؤسسات وجامعات المجتمع على السواء؛ ولذلك فإن ثنائية التقدم والتخلف متلازمتان لا تنفصلان من حيث الصراع على أيهما يتقدم على الآخر: التقدم أم التخلف؟

إن المجتمعات التى لديها طموح خلَّاق وفكر خلَّاق هى المجتمعات التى لديها الرغبة الحقيقية والإرادة العظيمة فى تحقيق التقدم؛ أما المجتمعات التى يحمل أبناؤها الفكر المختلف الكسول الذى يجنح إلى فكر غيره؛ أيًّا كان فى الماضى أو الحاضر ولا يستطيع أن ينتج فكره الحديث المميز؛ فإنها تظل دائمًا وعلى الدوام فى مؤخرة الدول والمجتمعات.

إن الإصلاح الحقيقى فى العقل العربى يبدأ فى الأساس من الإصلاح الدينى؛ الذى بدأ

فى العالم العربى والإسلامى منذ ما يزيد على مائة عام، ولكنه لم يحقق النتائج المرجوة؛ لأنه ظل مجرد وعظ وإرشاد؛ والناس عادة لا تعمل بالمواعظ بل بتغيير تصوراتها للعالم ونظرتها للكون، ومن ثم فالعودة إلى تأسيس العلم والفلسفة والتجديد الدينى؛ وتحويلهم إلى نظرية تحديث فى الفكر العربى؛ هو السبيل إلى الإصلاح الجذرى؛ والانتقال من الإصلاح إلى ثورة فكرية تتأصل أولًا فى شعور الجماهير؛ وتمدهم بتصور ثوري للعالم تواكب الثورات المطالبة بالحرية الآن.

إن العقل العربى؛ وبالتالى الإنسان العربى العادى؛ سجين فى سجون منيعة متعددة الأصناف والأسوار؛ وما إن يظهر بعض من ذوى الأفكار النيرة لتحرير الناس من سجونهم المركبة حتى يتعاون على قمعه، ورفضه، وإلغائه كل من السلطة والمجتمع بأفراده السجناء أنفسهم الذين ألفوا سجنهم الدائم بل إن معظمهم لا يعى سجنه؛ أى لا يدرى أنه سجين أصلًا؛ لأنه ولد وعاش فى هذا السجن الكبير؛ وسيموت فيه؛ فالعقل العربى سجين قهر المجتمع الذى يفرض عليه أن يفكر ويتصرف، ويسلك تبعًا لمستلزمات ومحددات ومسلمات العقل المجتمعى السائد؛ والمفارقة أن الإنسان يخضع لهذه المسلَّمات القاهرة دون وعى؛ بل وتصبح جزءًا من عقله الواعى يدافع عنها باعتبارها تمثل قيمه الخاصة؛ ومن واجبنا نحن النخبة المثقفة أن نميط اللثام عن أوجه التخلف داخل العقل العربى، ونكون وسيلة لإثارة هذا العقل العارق فى ظلام الماضى السجين، ونضع له خطة طريق الإصلاح والاجتهاد والتنوير لبناء منظومة الفكر العربى الحديث.

د.حسام كمال